سياحة في النوم

L'image de la pureté

بينما كنت مضطجعاً على فراشي اردد في فكري محاسن صنع الله تبارك وتعالى، الذي اتقن كل شيء فبرأه بمقتضى حكمته الربانية ، اذ اخذتني سنة الكرى فرأيت في منامي كأني اتجول في بستان اشجاره فنوآء ، وازهاره غراء ، واطياره بديعة الغناء، وانهاره متدفقة الماء ، فاخذت اسير الهوينا لاتمتع بمشاهد تلك الطبيعة البديعة ، وكنت التفت يمنة ويسرة لكي لايفوتني قل ولا جل. ثم ماابطأت ان وقع طائر بصري على قصر شامخ رفيع العماد مزين بانواع القناديل والمصابيح وكل ضياء ساطع حتى ظننت انه سابح في بحر من نور، والمياه المتألقة تنساب في جوانبه ، كما تنساب الافاعي في الفلوات الناعمة الرمال ، السريعة الانهيال، فدار في خلدي ان اتأثر هذا الماء الزلال، لارى مقره ومصبه او مندفقه ، وبقيت اتتبع منعطفاته ، حتى ادى بي المسير الى غدير كبير ، ماؤه عذب نمير ، واقع في وسط بقعة تقابل القصر المشيد ، وفي جنباتها مجلس نضيد ، وبين يديه اسرة متخذة من العاج ، المرصع بالجوهر الوهاج، فلما شاهدت ذلك، دفعني حب الاطلاع على الغرائب ، والاستكشاف عن الخفايا ان استريح هنيهة مما لحقني من العناء ، وكابدته من البرحاء ، وكانت عيناي شاخصتين شطر القصر ، مفكراً الف فكر .

فبينما انا على تلك الحال ، اذ فتح الزناج ، وخرج منه شاب مقنع بقناع مواج ، وعلى رأسه تاج ، ولابس حلة من الديباج ، يناهز عمره الحادية والعشرين ، كأنه منحدر من عليين ، ويحيط به مئات من الحور العين ، وفئات من اجمل البنين ، وهم يمشون كلهم مشياً رويداً . ويكرمونه اكراماً حميداً . وما زالوا على تلك الحال ، حتى بلغوا محلاً مرتفع المنال ، فرقى السلم ، ووقف ليتكلم ، وامر احد حجابه ان يميط النقاب عن وجهه الوضاء، وطلعته الحسناء، فلما فعل الحاجب ما امر به ، ظهرت عليه جميع محاسن ربه ، وبدا وجهه الوسيم، يتلألأ بنور اهل النعيم، ولاح جبينه الوضاح، ابهى من ضياء الصباح، تقول حواجبه دم عاشق مباح ، وهو ذو عيون كأنها عيون الحآذر الملاح ، ووجنات تزرى بالجلنار، تتوهج توهج النار. وخال كأنه قير الطعير، او مسك اذفر، وقد كقضيب البان او كاملود الخيزران .

وبعد ان تكلم كلاماً يونس الغزلان ، ويوقظ الوسنان ، اخذ يلتفت ذات اليمين وذات اليسار ، منزهاً الطرف بين الاشجار والازهار ، مستأنساً مع اخوانه وهو فى احسن مقام ، واطيب اقوام ، فوقع بصره على فوجدنى جالساً لا اتمكن من القيام ، لما اعترانى من شدة الغرام ، وكثرة الهيام ، فاشار الى بالنزول ، وان لا ابقى فى محلى كالسجين او كالمغلول ، ثم رايته مقبلاً الى ، مراقبا ما حوالى . فقلت فى نفسى : انك لقد وقعت فى بلاء عظيم ، لدخولك فى موطن خاص بهذا الامير الكريم .

وبينما كان الهلع قد اخذ منى كل ماخذ ، تقدم الى وحيانى احسن تحية ، ورحب بى كل الترحيب ، فرددت عليه السلام ، مجيباً اياه بعبارات الاجلال والاكرام ، ثم قال لى : لا تخف يا فتى ، وارك لا تعرفنى ، فقلت : لا ياسيدى ، فقال انا الذى طبق اسمى الخافقين ، وسمع به سكان ديار القطبين ، انا الذى اسمه « العفاف » انا الذى اقع من القلب فى الشغاف . انا مزكى النفوس ، انا زينة كل عروس ، انا سر السعادة ، انا مرقى الصلحاء الى اوج الامانة والسيادة . فلما سمعت هذه الكلمات ، وما حوت من المعانى الطيبات ، سكن روعى ، واطمأن قلبى ، وانقشعت من سماء افكارى ، سحب الخوف والفزع ، وتذكرت هذه الابيات :

لك منزل فى القلب ليس يحله ... الا هواك وعن سواك اجله
يامن اذا جليت محاسن وجهه ... علم العذول بان ظلماً عذله
الوجه بدر دجى عذارك ليله ... والقد غصن ثرى وشعرك ظله
هذه جفونك اعربت عن سحرها ... وعذار خدك كاد ينطق عذله
عار لمثلى ان يرى متسلياً ... وجمال وجهك ليس يوجد مثله
هل فى الورى حسن اهيم بحبه ... هيهات انحى الحسن عندك كله

وما كدت افرغ من انشاد هذه الابيات ، الا وفزعت فى نومى واستيقظت وقد انطبعت صورة « العفاف » فى مخيلتى فقلت فى نفسى : لادعون الناس الى حب هذا الخلق البديع ، ذى الحسن السنيع ، لما يورث النفس من المناقب السامية ، والفضائل العالية . ان ربك لرقيب ، وهو المجزى المثيب . فاجعلنا اللهم ممن يخافك ويتقرب منك ، ولا تجعلنا ان نصرف وجهنا عنك . اللهم امين